الدرس (04): ترجمة مصطلحات المنهج التاريخي

تمهيد:

المنهج التاريخي في النقد الأدبي من أقدم المناهج دراسة وتحليلا؛ يعنى أساسا بمقاربة الأعمال الأدبية من حيث موقعها في السيرورة التاريخية، ويستمد أهميته من تفسير الظاهرة الإبداعية بالبحث في أصول النشأة، ومظاهر التطور، وأكثر القضايا التي يهتم بها تنصب في إطار العلاقة بين الأدب والتاريخ، وقد توصل أعلام هذا الاتجاه إلى وضع منهجهم الخاص، واقتراح اصطلاحاتهم المعبرة عن مفاهيمهم وتصوراتهم.

صلة الأدب بالتاريخ:

إن الصلة بين التاريخ والأدب قائمة على مستوى وعي الكتابة؛ وهذا راجع إلى ثقافة المؤرخ وكذا ميوله الأدبية والفنية؛ حيث «نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعا أدبية ممتازة؛ فنحن إذ نقرأ بعض القطع في تاريخ الطبري مثلا نرى أنها قطع تاريخية وأدبية معا؛ حسن صياغة، وقوة عاطفة وسمو خيال، بل نرى بعض الكتب التاريخية كتبا أدبية بأكملها ... ككتاب الفتح القسي في الفتح القدسي، الذي ألَّفه عماد الدين الأصفهاني، ووصف فيه فتح صلاح الدين لبيت المقدس بعبارة مسجوعة مع إغراق في استعمال الجناس والتشبيه، ونحو ذلك، وفي العصور الحديثة نرى كتبا تاريخية كثيرة سما تعبيرها، ورقى أسلوبها حتى أصبحت كتب تاريخ وأدب معا»[1].

وكثيرا ما اتخذ الأدب من التاريخ موضوعا له؛ باعتباره قناة من قنوات الاتصال بالواقع وكذا التعبير عنه؛ وهكذا «ارتبط الادب بالواقع (بالمعاني الكثيرة للواقع) في ثقافات وعصور مختلفة، بل ربما أنه ارتباط لم يغب في أي عصر أو أية ثقافة»[2].

وهذا الاحتكاك الأدبي التاريخي لم يقتصر على قطعة أدبية دون سواها بل مارسته جميع الأجناس والأنواع الأدبية، إلا أن الرواية تحديدا قطعت أشواطا أكبر في تجريب الخطاب التاريخي، وقد أخذ هذا التجريب أكثر من تخريج؛ حيث أقبل «بعض الروائيين في الرواية الحديثة يصورون تصويرا كاملا الحياة كاملة في عصر من العصور لا برواية واحدة، ولكن بمجموع روايات؛ فيمثلون مثلا حضارة أمة من الأمم في عصر من العصور في كل مرافقها

[1]– مجموعة من المؤلفين، التوجيه الأدبي، عالم الأدب للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2016، ص134.

[2]– سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، المغرب – لبنان، ط3، 2002، ص369.

ومظاهرها، ولكنهم قليلون، وكثير منهم خصص نفسه لجانب واحد، أو جانبين كروايات البحر، وروايات الحياة الحربية، وروايات الطبقة العليا أو الوسطى أو السفلى، وروايات الحياة الصناعية والتجارية أو الفنية أو العملية، ونحو ذلك»[1].

ولا يقف الأمر عند حدود تصوير الحياة الواقعية بكل معطياتها التاريخية، وإنما هذه الصلة بين الأدب والعصر ليست بالبساطة التي تجعلها تتكشف من الوهلة الأولى، بل تلبس في سياق هذه الحوارية عددا من الأقنعة فيصعب تتبع الأثر التاريخي في الأدب انتقالا من عصر لآخر.

وإذا كان الأدب وليد العصر؛ يحمل روحه وطبائع أهله فإنه لا شك يختلف باختلاف العصر؛ ف «لو تأملنا أغلب آثار الأدب والفن – تأمُل الباحث عن سر حياتها – لوجدنا أنها لا تعيش حياة واحدة في كل العصور؛ لأنه ما من عصر ينطبق حاله على عصر آخر تمام الانطباق! .. فالآثار قد تعيش في كل عصر، بشخصية مختلفة بعض الاختلاف؛ ويرى فيها أهل كل عصر الناحية التي تتفق مع مزاجهم وذوقهم وتفكيرهم ومداركهم! .. فهي أحيانا تعيش في زمان بوجهها البراق المشرق، وتعيش في زمان آخر بروحها الخفيف الجذاب، ثم تعيش في زمان أخير بتفكيرها الدقيق العميق، والقليل جدا من بين هذه الآثار تلك التي تستطيع أن تعيش بوجه واحد في كل العصور! ..»[2].

هكذا هي الصلة بين التاريخ والأدب لا تطمئن لثابت ولا تستقر على متغير، وبقدر ما هي صلة انعكاس بقدر ما يحتفظ فيها كل طرف بخصوصياته الفاعلة والمؤثرة في الطرف الآخر، غير أن هذه الصلة أكثر ما أضر بها تلك التقسيمات الزمنية التي لا يسعها إلا أن تكون صورية كلما تتبعنا أكثر حضور التاريخ في الأدب فقد يتحدث أديب العصر الحديث بلسان القديم، وقد نجد في الأدب القديم فكرا معاصرا وبهذا يتراجع أثر الزمن ويتقدم روح التاريخ.

النقد التاريخي:

النقد التاريخي (Critique historique)، أو المنهج التاريخي في الدراسات النقدية الأدبية؛ يُعرف «بأنه المنهج الذي يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لفهم الأدب ودرسه وتحليل ظواهره

[1]– أحمد أمين، النقد الأدبي، موفم للنشر، الجزائر، 1992، ص162-163.

[2]– توفيق الحكيم، فن الأدب، دار مصر للطباعة، مصر، (د.ت.ط)، ص305.

المختلفة»[1]. كما يتخذ من هذه الحوادث وساطة فكرية «لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ما، ومجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فن من الفنون»[2].

وهو من المناهج السياقية الحديثة التي تدرس العمل الأدبي من الخارج، مع التركيز على ملابساته التاريخية أكثر من غيرها، كما «يرمي قبل كل شيء إلى تفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخصيات الكتاب، فهو يعنى بالفهم والتفهيم أكثر من عنايته بالحكم والمفاضلة»[3].

حقق هذا المنهج تقدما في دراساته التطبيقية، إلا أن الأمر لم يسلم من مزالق كثيرة؛ لعل أهمها المبالغة في تعقب الأثر التاريخي خارج النسق الأدبي إلى حد التعامل مع الأدب على أنه وثيقة تاريخية، واعتباره وسيلة لفهم التاريخ بعد أن كان غاية في حد ذاته والموضوع الأول للممارسة النقدية.

المصطلح وترجمته في المنهج التاريخي:

إن إشكالية غياب الفصل بين المعارف لا تكاد تقف عند حدود المنهج والنظرية بل وتشمل أيضا المصطلحات، وهذا شأن المقاربة النقدية التاريخية؛ وهذا ما أكده الباحث "صلاح فضل" حين قال: «إذن نجد الجهاز المفاهيمي "منظومة المصطلحات" في المنهج التاريخي تستقى من هذه العناصر مرتبة على النحو التالي: التاريخ أولا؛ أي المصطلحات التي اختمرت عبر المراحل التاريخية واستقرت في الوعي الثقافي، وثانيا المصطلحات المتنوعة من علم الأحياء»[4].

كما تميزت المصطلحية في المنهج النقدي التاريخي بالانفتاح على مختلف مجالات المعرفة، بحكم اتساع مجال البحث فيها، وهذا ما انعكس مباشرة على فكرة الاصطلاح؛ حيث راح «المنهج التاريخي في نقد الأدب يستعير مصطلحاته – بطبيعة الحال – من مجالات التاريخ، التي تتحدث عن العصر والبيئة وغيرهما، كذلك يستعير مصطلحاته من تلك المصطلحات التي نشأت ونضجت وتطورت على مر التاريخ، وأصبحت علامة على

[1]– وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث – رؤية إسلامية، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، دمشق، سورية، ط2، 1430هـ-2009م، ص23.

[2]– يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007، ص15.

[3]– محمد مندور، في الأدب والنقد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1988، ص17.

[4]– صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص43.

منظومات فكرية، ومذهبية إلى جانب ذلك فإن المنهج التاريخي قد يستعير مصطلحاته من علم الأحياء، عندما يتحدث عن النشأة والتحول والتطور والموت، وقد يستعير بعض مصطلحاته من علم الاجتماع»[1].

وإذا أردنا تقديم تفسير لهذا التعدد في مصادر المصطلحية التاريخية في النقد الأدبي يمكن ردّ ذلك إلى طبيعة المقاربة في حد ذاتها؛ ذلك أن التاريخ يكاد يكون مصدرا للمعارف والعلوم كلها، بحكم حاجتها إلى السيرورة الزمنية في النشوء والارتقاء، وكأن لا فعل ولا فكر ولا فن يمكن له أن يتحقق خارج دائرة التاريخ، ولا أن يتجنب أثره، ونظرا لهذا الاحتكاك القائم كان من البديهي أن يفيد الدرس التاريخي في النقد من مصطلحات العلوم الأخرى؛ خاصة علمي الاجتماع والأحياء.

ويعود توظيف مصطلح التاريخ (history) إلى أواخر القرن 15؛ بمعنى «معرفة منظمة عن الماضي ... تبعث الكلمات: (historian) مؤرخ، و(historic) و(historical) تاريخي بشكل رئيسي هذا المعنى العام، لكن مع بعض المعاني المتبقية التي تدل على الكتابة الفعلية»[2]، وعرف المصطلح في منتصف القرن 20 بمعنى «الرواية أو سلسلة من الروايات لأحداث ماضية حقيقية لا يمكن بدقة تبين أية خطة فيها، أو أحيانا كبديل لذلك لا تحتوي على أية إشارات ضرورية للمستقبل»[3].

وفي تحديد أكثر تفصيلا أطلق مصطلح التاريخ لاحقا للدلالة «على العلم بما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة، سواء أكان ذلك الشيء ماديا أم معنويا كتاريخ الشعب، وتاريخ الأسرة، وتاريخ القضاء، وتاريخ النوع الفلاني من الأحياء، وتاريخ العلم، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأدب، وتاريخ اللغة الخ.. وتطلق أيضا على الأحوال المتعاقبة التي مرت بها البشرية، فمنها ما يعرف بالأخبار والتقاليد والآثار كما في علم التاريخ، ومنها ما لا سبيل إلى معرفته بهذه الوسائل، كما في علم ما قبل التاريخ»[4].

نلاحظ أن التاريخ بوصفه مفهوما هو أكبر من أن نتمكن من حصره في مجال فكري بعينه؛ وهذه الشمولية انتقلت به إلى حقل الدراسات النقدية، الأمر الذي جعل الناقد أمام تحديات أكبر في بحثه وتحليله، شأنه في ذلك شأن المؤرخ مع اختلاف في طبيعة المادة المدروسة.

---

[1]- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص42-43.

[2]- وليمز ريموند، الكلمات المفاتيح معجم ثقافي ومجتمعي، مرجع سابق، ص150.

[3]- نفسه، ص151.

[4]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج1، الشركة العالمية للكتاب (ش.م.ل) طباعة – نشر – توزيع / مكتبة المدرسة / دار الكتاب العالمي / الدار الإفريقية العربية / دار التوفيق، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م، ص228- 229.

ومن المصطلحات التي نجد لها توظيفا متكررا في المنهج التاريخي؛ ما ذكره النقاد في هذا الحقل من الدراسة خاصة في تطبيقاتهم؛ متمثلة أساسا في العرق والبيئة والزمن؛ وهذه الثلاثية المصطلحية تكاد تمثل السند الاصطلاحي الأول في البحوث النقدية التاريخية، أما عن المفاهيم التي تفيدها؛ فتتمثل في[1]:

العرق (Race): مصطلح اعتمده "هيبولت تين" (Hippolyte Taine) (1828-1893)، وروّج له أرنست رينان (Erneste Renan) (1823-1892)، وهو الأصل الذي تتفرع عنه جميع الأحداث التاريخية، كما أنه مجموع الاستعدادات الفطرية والوراثية التي يولد بها الإنسان، وتتحكم في توجيه طباعه وسلوكه، وسماته الفيسيولوجية، والعرق أعراق كثيرة تختلف باختلاف الشعوب، وهي المصدر الأول لخصائصهم الفكرية التي تتكشف عبر نشاطاتهم العقلية والفلسفية والفنية، وأن التفوق الإبداعي هو نتاج التفوق العرقي في منجزات البشر.

البيئة (Milieu): ربط "تين" بين البيئة والعرق؛ كونها تشمل جميع العوامل الطبيعية بما في ذلك حالة الإقليم، بالإضافة إلى العوامل السياسية والاجتماعية، وإذا كانت البيئة تؤثر في العرق خارجيا، فإن تأثير العرق نابع من الأفراد أنفسهم.

الزمن (Moment): هو حصيلة تفاعل بين العرق باعتباره قوة داخلية والبيئة باعتبارها قوة خارجية، وأن متابعة القوتين تكشف عن اللحظة الزمنية التي أبدع فيها الكاتب، على أساس أن الأفكار الإبداعية تتأتى استجابة لروح العصر، هذا ما ذهب إليه "تين"، وكي يوضح فكرته أكثر قام بإجراء مقارنات بين العصور الأدبية، فتبين له أن القالب الشعري والبنية المسرحية لم تتغير، إلا أن التفاوت بين الريادة والتبعية في الإبداع راجع للحظة الزمنية؛ ذلك أن هناك لحظة أولى لا يجد فيها المبدع نموذجا يقلده، ولحظة ثانية قد يجد فيها أكثر من نموذج يتبعه على سبيل المحاكاة والتقليد.

ومن المصطلحات العلمية التي وظفتها المنهج التاريخي مصطلح المقاربة الجينية (genetic approach) التي تنظر إلى العمل الأدبي على أنه محصلة نصوص سابقة له، وأنه قد انحدر منها أصلا، أما عن طريقة عملها فقد «اهتمت أساسا بتتبع الروابط التيمية أو النوعية (thematic or generic links) بين النصوص،

[1]- ينظر: إبراهيم السعافين وخليل الشيخ، مناهج النقد الأدبي، تحكيم شكري عزيز الماضي، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2008، ص43-44.

خالقة "عائلات" في علاقاتها بالنصوص السابقة عليها والمنحدرة منها وموضحة تطور التيمة أو النوع الأدبي (genre) الناشئ»[1].

وتقوم المقاربة الجينية على فرضيتين أساسيتين؛ هما فرضية التماس (contact) ويكون مباشرا أو غير مباشر وهو أشبه بالتناص الذي يسمح باتصال أو احتكاك الأعمال مع بعضها، جراء اطلاع الكتاب على منجزات بعضهم بواسطة القراءة والمطالعة، أو عبن طريق اللقاء المباشر بينهم، واقتباس أفكارهم وأساليبهم في التأليف، أما الفرضية الثانية فتتمثل في الانقسام إلى عصور (périodisation)؛ حيث تنتج المقاربة الجينية أقساما تاريخية في تصنيفها للأعمال الأدبية على أساس مبادئ النشأة والتطور، وهذه العصور تبقى محتفظة بعناصر مشتركة في حين تختلف في أمور أخرى مهما تقاربت الفترات الزمنية، ويبقى هذا التقسيم نسبيا؛ لأنه لا يصلح لبعض الأعمال الأدبية خاصة تلك التي كتبت في الفترات الانتقالية[2].

بالنسبة للثلاثية المصطلحية العرق والبيئة والزمن فهي مستوحاة من التاريخ وعلم الاجتماع، أما المقاربة الجينية بفرضياتها فهي مستوحاة من علم الأحياء، وتم نقل هذه المصطلحات من النقد الغربي إلى النقد العربي اعتمادا على الترجمة التي تقدم مقابلا اصطلاحيا في اللغة الهدف.

خلاصة:

أفاد الناقد العربي من مقولات النقد التاريخي لدى الغرب، وفي سياق هذه الإفادة كان لزاما عليه التعامل مع المصطلح التاريخي في دلالاته الأجنبية المتعددة، الأمر الذي قاده بالضرورة إلى ترجمته ونقله إلى الخطاب النقدي العربي، وبغض النظر عن القيمة المعرفية لهذا الإجراء، وكذا الإشكالات المتعلقة به، فإن تطبيقات المنهج التاريخي قد سادت المشهد النقدي لدينا في فترة فرضتها خصوصية المرحلة المعرفية.

[1]– ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، تر. عبد المقود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005، ص124.

[2]– ينظر: نفسه، ص124-125.